

كفالات اليتيم في القرآن



قال تعالى: (الْمَالَ عَلَى حُبُّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى) (البقرة / 177).

حدّثت الشريعة على ضرورة رعاية الأيتام والتحذّن عليهم كمؤشر على سلامه المجتمع وتكاففه وتعاضده، فالمجتمع الذي لا يكرّم أيتامه مجتمع مفكّك، وهذا أمير المؤمنين يوصي بالأيتام حتى لحظة وفاته، فعنده (ع) - في وصيته قبل الموت - : إِنَّمَا في الأيتام، فلا تغبُّوا أفواههم، ولا يضيعوا بحضرتكم، فقد سمعت رسول الله (ص) يقول: "مَنْ عَالَ يَتِيمًا حَتَّى يَسْتَغْنِي أَوْجَبَ إِنَّمَا عَزَّ وَجَلَّ لِهِ بِذَلِكِ الْجَنَّةَ كَمَا أَوْجَبَ لِأَكْلِ مَالِ الْيَتِيمِ النَّارَ".

الأنبياء والأولياء مت肯فٌ لـوا الأيتام:

قال تعالى: (وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا) (آل عمران / 37). ولا يخفى أنّ كفالات نبي الله زكريا (ع) لمريم لم تكن كفالات مادّية بل معنوية وسياسية.

قال تعالى في مدحه للبيت العلوي: (وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبُّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسْيَرًا * إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا) (الإنسان / 8-9).

التكفّل ثقافة عامة:

قال تعالى: (وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبُّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسْيَرًا *

إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِرَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا.

وقوله (ويطعمون) يفيد أن هذه الآية تعلّمنا أن إطعام اليتيم ليس فعلاً فردياً وإنما عمل عامٍ ينبغي أن يتحول إلى ثقافة الأُسر والعائلات، فالقرآن الكريم لم يمتدح فرداً معيناً في الآية وإنما مدح كافية أفراد هذا البيت الذين كانوا يحملون هذه الثقافة.

ولذلك أشارت الأحاديث المرويّة عن رسول الله (ص) إلى التركيز على كونها ثقافة بيوت وليس ثقافة أفراد فقط، أي تربية عوائلنا على هذه الثقافة الإلهية.

قال رسول الله (ص): "خير بيت في المسلمين بيت فيه يتيم يحسن إليه، وشرّ بيت في المسلمين بيت فيه يتيم يساء إليه، أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا".

وعنه (ص): "خير بيوتكم بيت فيه يتيم مُكرّم".

ضوابط التكفّل ومعايره:

قال تعالى: (وَأَمَّا الْجَدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتَّبِعِيهِنَّ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ رَجُلَتَهُ كَذِيرٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَذِيرَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلَتُهُ عَنْ أَمْرِي) (الكهف/ 82).

هذه الآية التي وردت في قصة موسى والخضر إشارة واضحة إلى بناء الخضر لجدار اليتيمين دون أن يتدخل عليه أبداً كما أشار عليه موسى (ع).

والآية تعلّم منا عدّة أمور:

1- أن الله هو الذي أمرنا برعاية الأيتام وتكفّلهم لقوله تعالى (وَمَا فَعَلَتُهُ عَنْ أَمْرِي). وبالتالي فإن رعايتهم قبل كل شيء واجبٌ إلهيٌّ وتکلیفٌ شرعيٌّ لا يجوز تجاهله أو تناسيه.

2- أن هذه الرعاية ينبغي أن تستمر حتى يبلغ اليتيم أشدّه أي يصبح بالغاً راشداً، أي حتى يستغني ويصبح قادراً على إعالة نفسه. وهذا المعنى أوردته الآية كذلك على أنه إرادة إلهية لقوله تعالى: (فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا).

وقال تعالى: (وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتَمِ إِلَّا بِالْمَسْتَقْرِئِيَّةِ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُمْ (الأنعام/ 152).

3- أن الرعاية ينبغي أن تشمل المحافظة على أموال اليتامي، فقد سوّغ الخضر (ع) فعله بقوله الله تعالى: (وَيَسْتَخْرِجَا كَذِيرَهُمَا)، فإن الاستهثار بمال اليتيم والتفريط به لا يقل سوءاً عن أكل مال اليتيم.

4- أن هذه الرعاية ينبغي أن تكون مجازية فقد أبى الخضر أن يتخذ أبداً على عمله حتى بعد أن أشار عليه موسى (ع) بذلك. وقد سوّغ النبي الله الخضر (ع) هذا الأمر بقوله (رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ) وفي ذلك إشارة إلى أن معاملة الأيتام ينبغي أن تكون قائمة على الرحمة لا بدل ولا عوض فيها يطلبها الإنسان وإنما يتوصّم الأجر والثواب وعلو الدرجات يوم القيمة.

وهذا المعنى نراه كذلك في آية (وَيَطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبَّهِ مِسْكِينًا

وَيَأْتِيهِمَا وَأَسْرِيرًا * إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ الَّذِي لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا)، والمعنى أنّ كافل اليتيم لا ينتظر جزاءً أو بدلاً على عمله، بل إنّه لا ينتظر ولا يريد حتى كلمة شكر على ذلك.

5- أنّ رعاية الأيتام ضرورية حتى ولو كانوا يملكون كفايتهم المادية، فالآية تشير إلى أنّ هذين اليتيمين كانوا يملكان كنزاً لقوله (وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا)، ومع ذلك لم يتخذ النبي ﷺ الخضر منها أجراً على عمله مع أنّ الفعل الذي قام به النبي ﷺ الخضر فعلٌ ماديٌّ وهو إقامة الجدار، وذلك لأنّ الرعاية التي يستحقها اليتيم ليست دائمًا رعاية مادية، بل هناك رعاية معنوية ونفسية واجتماعية وسوى ذلك، ومن الواجب ألا نقصّر فيها.

6- ولعلّ هذه الآية أكثر دلالةً على اليتيم الذي كان أبوه صالحًا والذى يأتي بلا شك الشهيد على رأس هذه القائمة كونه مثال الصلاح ورمز الإصلاح، وبالتالي فإنّ هذه الآية أكثر مطابقةً لأبناء الشهداء.

أكل مال اليتيم:

قال تعالى: (فَأَمّا الْيَتَيمَ فَلَا تَقْهِرْ) (الضحى/ 9).

ولا يخفى أنّ أكل مال اليتيم لا يعني انتزاع حقّه من يده وسلبه إياه كما قد يتوجه البعض، بل يصدق كذلك على عدم إعطائه حقّه الذي افترضه الله عنه منه، فكلاهما أكل لمال اليتيم.

1- من الكبائر: أي من الذنوب التي توعّد الله صاحبها بالخلود في النار. فعن الإمام الصادق (ع) - لمّا سئل عن الكبائر - قال: "منها أكل ما اليتيم ظلماً".

2- النار في الدنيا: قال تعالى: (إِنَّ الْمُذْنِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى طُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ زَارًا وَسَبَقْلَوْنَ سَعِيرًا) (النساء/ 10).

والآية واضحة أنّهم يأكلون في بطونهم ناراً في الدنيا قبل أن يصلوا السعير في الآخرة.

وعن رسول الله ﷺ: "شر المأكل أكل مال اليتيم ظلماً".

3- شدّة العذاب في الآخرة: والآخرة هنا تشمل عذاب البرزخ وعداب الجحيم كما في تفسير الآية.

وأمّا عذاب يوم القيمة فعن رسول الله ﷺ: "يبعث الناس عن قبورهم يوم القيمة تأجّج أفواههم ناراً"، فقيل له: يا رسول الله من هؤلاء؟ قال: "الذين يأكلون أموال اليتامي ظلماً إنّما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً".

وأمّا عذاب البرزخ فعن النبي ﷺ - في حديث المراج -: "نظرت فإذا أنا بقوم لهم مشافر كمسافر الإبل، وقد وكّل بهم مَن يأخذ بمشا فرهم ثم يجعل في أفواههم صخراً من نار، فتقذف في أحدهم حتى تخرج من أسفلهم ولهم خوار وصراخ، فقلت: يا جبرئيل مَن هؤلاء؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون أموال اليتامي ظلماً إنّما يأكلون في بطونهم ناراً".

وفي الروايات أنّ رسول الله ﷺ يقف يوم القيمة في مواجهة آكلي مال اليتيم في إشارة إلى أنّ التعدي على اليتيم إنما هو تعدّ عليه، فقد ورد عنه ﷺ: "أنا خصيم يوم القيمة عن اليتيم والمعاهد، ومَن أخاصمه أخصمه".

